

المحاضرة الثانية: جذور القضية الفلسطينية وتطورها حتى حرب 1948

أ - ظهور الحركة الصهيونية وتطورها:

اشتقت كلمة الصهيونية (Zionism) من صهيون، وهو أحد التلال أو الجبال التي تقوم عليها مدينة القدس القديمة، وهو اسم كنعاني في الأصل وقد ورد ذكره في التوراة والإنجيل، وكان غرض اليهودية العالمية من اختياره، هو إثارة الشعور الديني والعنصري في يهود العالم واكتساب تأييد العناصر المسيحية الغربية وعطفها. أما بخصوص الصهيونية فهي؛ حركة عنصرية سياسية استعمارية أسبغت على اليهود صفة القومية والدلالة الجنسية، وزعمت أن الشعب اليهودي يكون عرقا نقيًا. ونادت بحل لما أسمته "بالمشكلة اليهودية" فعارضت إدماج اليهود في أوطانهم الأصلية، ودفعتهم للهجرة إلى فلسطين، مدعية أن لهم فيها حقوقا تاريخية في فلسطين عن إرهاب وطردها شعبها العربي المسلم.

وتستمد الصهيونية أصولها من الفكر الصهيوني النابع من عقائد التوراة وشرائع التلمود، تلك العقائد التي جعلت المستعمرين على مدار التاريخ يسعون لاستغلال اليهود في العالم إلى ما يسمونه زورا وبهتانا أرض الميعاد، كما تستمد الصهيونية حيويتها من ارتباط الفكر الصهيوني بعقائد دينية وعنصرية ثابتة في أذهانهم. أما مدلولها السياسي الحديث فتهدف الصهيونية إلى السيطرة على العالم في المدى البعيد بدعوى ((أن الله استخلفهم على العالمين وأنهم شعب الله المختار)) فهي بذلك تعتبر أقدم مبدأ عنصري استعماري ظهر على وجه الأرض، وبذلك تعتبر الصهيونية بهذا المفهوم هي الفلسفة القومية للغالبية العظمى من اليهود في العالم، وما فلسطين سوى هدفهم القريب الذي منها يسعون إلى تحقيق هدفهم البعيد.

ولم يكن من قبيل المصادفة أن تنشأ الصهيونية في أوروبا وأن يكون توقيت ظهور منظماتها في نهاية القرن التاسع عشر، وأن تصوغ أيديولوجيتها على الوجه الذي صاغته فيه، فالأوضاع الاقتصادية والسياسية هي التي هيأت المناخ المناسب لظهور اللاسامية، والصهيونية التي جاءت حسب زعم أصحابها كرد وحيد على اللاسامية.

كان لانتشار فكرة القومية في أوروبا خلال القرن التاسع عشر أثر على بعض مفكري اليهود وفلاسفتهم الذي أخذوا يفكرون في حل للمشكلة اليهودية في أوروبا والتخلص من الاضطهاد الذي تعرضوا له هناك فوجدوا أن خلاصهم من أرض الشتات لا بد أن يكون

على أساس من الفكر الديني اليهودي وكان على رأس هؤلاء الحاخام "يهودا القالي" Rabbi Yehudah Alkai (1798 . 1878). الذي عاش في البلقان في أعقاب الحرب اليونانية التحررية، التي تميزت بالشعور القومي ضد الدولة العثمانية. وقد تأثر "القالي" بهذه الحرب فنشر كتيباً بعنوان «اسمعي يا اسرائيل» عام 1834، اقترح فيه إقامة مستعمرات يهودية في فلسطين كأساس لخلاص اليهود من شتاتهم واضطهادهم. وقد هاجر "القالي" إلى فلسطين وهو في السبعين من عمره، وأنشأوا عليها أول مستعمرة زراعية ليهود في فلسطين هي مستعمرة (بتاح تكفا) والتي تعني (باب الأمل) وكانوا بذلك يضعون أفكار "القالي" موضع التنفيذ.

ومن الذي عاصروه وسعوا في هذا الشأن الحاخام "زفي هيرش كاليشر" Ziv Hirseh Kalisher (1795-1874) المولود في بوزنان (Poznań) في بولونيا، استقر في بلدة تورون (Toruń) ومكث فيها حاخاما طيلة أربعين سنة، زامن فيها حركة الإصلاح الديني اليهودي وعارضها بالدفاع صحة التقاليد المتوارث وتشدد على ابراز العلاقة بين اليهودي والأرض المقدسة، في سنة 1836 عبر صهيونيته في رسالة بعث بها إلى كبير فرع عائلة روتشيلد في برلين. وعندما تأسست (جمعية رعاية الاستيطان اليهودي في فلسطين 1860 في فرانكفورت انضم إليها واستوحى من أهدافها كتابه الصهيوني «السعي لصهيون») عام 1892. الذي بالغ فيه في وصفه لحياة اليهود في أوروبا الشرقية، ودعا إلى إنهاء الاضطهاد الذي يعانيه هناك، بالهجرة إلى فلسطين والاستيطان الدائم فيها. راح "كاليشر" يتنقل بين بلدان أوروبا محرضاً سكانها اليهود لتجسيد أفكاره في الواقع، وهو الأمر الذي دفع بجماعة من اليهود على شراء أراضي في ضواحي (يافا) عام 1866. حيث قامت (جمعية الأليانس الاسرائيلية) التي كانت قد تأسست في فرنسا سنة 1860، بإنشاء المدرسة الزراعية التي سميتها (مدرسة ميكفاه إسرائيل الزراعية Mikveh Israel Agricultural School) لتشجيع شراء الأرض وإقامة المستوطنات الزراعية، فكانت مساعي "كاليشر" الحثيثة يرمي من وراء تثبيت دعائم الاستعمار والاستيطان الصهيوني في فلسطين.

ومن الذي ساروا في هذا المسعى وتأثروا بأفكار "كاليشر" المفكر الاجتماعي اليهودي "موسى هس" Moses Hess (1812-1875) الذي اعتبره بعضهم أنه هو بادئ الحركة الصهيونية، ولد في بون الألمانية، اهتم بدراسة الفلسفة والعهد الجديد والتاريخ وكان شديد الإعجاب بالأدب الفرنسي، تأثر بأفكار الفيلسوفان "روسو" و"سبينوزا" وظهر ذلك

في كتابه الأول الذي صدر بدون مؤلف بعنوان: «تاريخ الإنسانية المقدس، اعلان لحرية باسم الروح القدس»، اعتنق في بداية حياته الأفكار الاشتراكية ثم انصرف عنها، رفض الحركة الإصلاحية لليهود واندماجهم في تيار الحياة والانصهار في بوتقة الثقافة الألمانية، بدعوة أن العداة لسامية لن يزول من الوجود بهذه الصورة. وعبر عن صهيونيته في كتابه الشهير: «روما والقدس» الذي نشره سنة 1862 والكتاب يقدم حلا للمشكلة اليهودية على أساس توطين اليهود في فلسطين، ودعوة إلى قومية يهودية تحر القدس وتكون بداية عصر الانبثاق الجديد، على غرار تحرير المدينة الخالدة روما في التاريخ القديم. وينتهي "هس" إلى القول فيه بأن: «الوضع العالمي الحاضر يجب أن يشجع إقامة المستعمرات اليهودية في الحال عند قناة السويس وعلى ضفتي الأردن». في سنة 1863. سافر "هس" إلى باريس فرحب به يهود فرنسا واشترك في تحقيق المدرسة الزراعية قرب (يافا) الذي تبنته الأليانس الإسرائيلية آنذاك.

ومن الذي أضفوا لبنة جديدة في صرح الفكرة الصهيونية الطبيب الروسي اليهودي "ليون بنسکر" Leon Pinsker (1821- 1891) الذي ولد في بولونيا وبدأ منذ 1860 يهتم بالشؤون اليهودية، وقد كان في بداية حياته يؤمن بأفكار حركة التنوير (الهسكلاه Haskalah)، التي كانت تدعو اليهود إلى الاندماج في المجتمعات التي يعيشون فيها، ولكن أفكاره هذه ما لبثت أن تغيرت، كما تغيرت أفكار الكثيرين من إتباع هذه الحركة على اثر مذبحه اليهود في روسيا عام 1881 في أعقاب اغتيال قيصر روسيا اسكندر الثاني، حيث اتهم اليهود بالاشتراك في مؤامرة الاغتيال، فكانت المذبحة عاملا مباشرا في فشل حركة التنوير، ما اضطر يهود روسيا لاتجاه إلى اعتناق الفكرة القومية، واتخاذها أسلوبا لخلاص من الاضطهاد. في سنة 1882 نشر "بنسکر" كتابه ((التحر الذاتي)) الذي تناول فيه حياة البؤس والاذلال التي يعيشها يهود أوروبا الشرقية بخاصة، وبالغ في ذلك كثيرا، وانتهى في النهاية إلى أن حل المشكلة اليهودية تكمن في تحرير اليهود ذاتيا في المجتمعات التي يعيشون فيها، والسماح لهم بالهجرة إلى وطن يمارسون فيه السيادة على أنفسهم. وكان همه في ذلك إيجاد قومية يهودية تعيش على أرض يهودية مستقلة.

كان "بنسکر" يعتقد في بدي الأمر أن بالإمكان إيجاد وطن قومي لليهود في أي جزء من العالم مما جعله يذكر اسم فلسطين في كتابه، ولكن أن لاقى معرصة شديدة من المتعصبين اليهود الذين كانوا يصرون على أن تكون هذه الأرض هي فلسطين وحدها هذا

الوطن، اضطر أن يغير رائه ويصبح صهيونيا ملتزما. وكتابه بمثابة الكتاب المقدس لكثير من اليهود الذين راحوا يؤلفون الجمعيات من أجل شراء الأراضي في فلسطين لإقامة المستعمرات اليهودية عليها. وكان من بين تلك الجمعيات واحدة تسمى (البيلو Bilu) وقد تألفت من عد من طلاب جامعة خركوف في روسيا عام 1882، وكان هؤلاء الطلاب يرفعون شعارا يدعون فيه اخوانهم من يهود الشتات إلى العمل بجد من أجل استعادة أرض فلسطين، ونص ذلك الشعار: ((إذا لم أساعد نفسي فمن يساعدني، يا بيت يعقوب. هلم بنا نذهب (Beth Jacop lech Ue-meleha)). ومن الحروف الأولى من هذه الكلمات العبرية تكونت كلمة (Bilus) التي عرفت بها الجمعية فيما بعدن ولكن هذه الجمعية كانت قد فشلت في الحصول على ترخيص من الباب العالي لشراء الأراضي في فلسطين من أجل إقامة مستعمرات يهودية عليها، فقد تنهت السلطات العثمانية لما كان يحيكوه الصهاينة فأصدرت في شهر أبريل عام 1822 قانونا يمنع اليهود من الاستيطان في فلسطين.

إلا أن هذا القانون العثماني لم يثن من عزيمة "بنسكر" الذي واصل جهوده فألف (جمعية زرو بابل Zeru Babel) في مدينة أوديسا عام 1883، وتولى رعايتها حتى غدت مثالا يحتذى لكثير من الجمعيات اليهودية التي راحت تقلدها في أهدافها من أجل انجاح الاستعمار الاستيطاني اليهودي في فلسطين، غير أن أهم أعمال "بنسكر" على الاطلاق كانت جهوده التي بذلها لتوحيد تلك الجمعيات اليهودية في حركة واحدة سميت حركة «أحباء صهيون» وذلك سنة 1887 على اثر انعقاد مؤتمر دروسكينجي Droskiniki، وفي عام 1890 هذه الحركة برئاسة "بنسكر" على اعتراف رسمي من روسيا، عندما منحتها ترخيصا لعمل باسم «جمعية دعم الزراعيين والحرفين اليهود في فلسطين وسوريا». وزادها حماسا عندما أقدمت السلطات العثمانية على رفع الحظر على الاستيطان اليهودي في فلسطين عام 1890، مادفع إلى تشكيل لجنة برئاسة "بنسكر" لتشجيع شراء الأراضي في فلسطين والاشراف على الهجرة اليهودية. وجرى افتتاح مكتب لهذا الغرض في مدينة (يافا)، إلا أن السلطات العثمانية سارعت فأمرت بإغلاقه نتيجة لاحتجاج عرب فلسطين على عمليات الاستيطان اليهودي في بلادهم. فتوقفت عمليات الاستيطان في فلسطين ما أوقف استمرارية تقدم وتطور الصهيونية.

ظلت الحركة الصهيونية مفتقرة إلى التنظيم والتخطيط حتى تطورت إلى حركة سياسية على يد "ثيودور هرتزل" Theodor Herzl (1860- 1904)، الذي كان قد درس

القانون في جامعة فيينا، واشتغل عقب تخرجه بالصحافة والأدب، وعمل مراسلا في باريس لجريدة (الصحيفة الجديدة الحرة Neve Freie Presse)، وكان هرتزل متحمسا مثله في ذلك الكثيرين من كتاب عصره اليهود لإنشاء وطن قومي لليهود. وقد استغل في ذلك قضية "دريفوس" الشهيرة في فرنسا للوصول إلى مراتب الشهرة والدعوة للحركة الصهيونية، كان "دريفوس" ضابطا بهيئة الأركان الفرنسية، واتهم سنة 1894 بإفشاء الأسرار العسكرية الفرنسية إلى الألمان، وحكم عليه بالإعدام غير أنه برئ بعد ذلك بعامين بعد أن جند اليهود كل طاقتهم بل وتمكنوا من تسخير الكاتب الفرنسي الشهير "إميل زولا" فهذا المسعى. نشط "هرتزل" بعد هذا الحادث وما رآه من احتقار لليهود في شخص "دريفوس" لعمل على تنظيم اليهود لتحقيق فكرة تكوين دولة لهم في فلسطين.

كما دفعته هذه القضية على تأليف كتاب باللغة الألمانية أسماه: ((الدولة اليهودية Der Judenstaat)) ونشره عام 1896، وحاول في هذا الكتاب أن يقيم الدليل على أن اليهود يمثلون أمة متميزة، وأن المشكلة اليهودية مشكلة قومية يجب أن تأخذ طريقها إلى الحل كبقية القوميات المضطهدة. وبذلك صاغ "هرتزل" الأفكار الصهيونية في حركة سياسية ذات طابع عالمي، وأصبح المنظم الفعلي لحركة الصهيونية. وأنشأ في عام 1897 مجلة أسبوعية أسماها ((العالم Die Welt))، وأصبحت الصحيفة الرسمية باسم الحركة الصهيونية. وفي 29 أوت 1897 سعى "هرتزل" إلى عقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة (بال Basle) بسويسرة، وقام المؤتمر الذي حضره نحو من مائتي عضوا من أنحاء العالم بوضع أول ميثاق للحركة، كما حقق المؤتمر المهمة التي انعقد من أجلها، وكان قراره الرئيسي الذي هو هدف الصهيونية المتمثل في إقامة وطن قوي لليهود في فلسطين يضمنه القانون العام. كما أقر المؤتمر العلم الصهيوني والنشيد القومي. وخرج بجعل اللغة العبرية يتحدث بها اليهود في جميع أنحاء العالم، وأيضا إنشاء صندوق جباية لتيسير عملية هجرة اليهود إلى فلسطين وشراء الأرض لهم هناك.

على كلٍّ؛ فإن الحركة الصهيونية بعد أن حددت هدفها المرحلي المؤتمر الصهيوني الأول، تكونت في (بال) المنظمة الصهيونية العالمية، وانتخب "هرتزل" رئيسا لها، ثم بدأ الفور العمل من أجل الحصول على حق شرعي معترف به دوليا لبدء في تنفيذ الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين، وضعت الحركة الصهيونية برنامجا عمليا لتنفيذ هذا

المخط يقوم على ثلاثة خطوط: التنظيم، والاستعمار أو الاستيطان، ثم الدبلوماسية أو المفاوضات من جهة.

ومن جهة ثانية عملت على تنظيم أجهزتها الإدارية لقيام بأعباء ومهام بناء الدولة، فأقامت جمعيات صهيونية أعلنت تعاطفها مع المنظمة الصهيونية العالمية، كما عملت على خلق أدوات الاستعمار الصهيوني المنظم في فلسطين، ومنها: المصرف اليهودي لمستعمرات ((صندوق الائتمان اليهودي للاستعمار))، ولم يبدأ المصرف جدياً إلا في عام 1901، وقد أنشئ مصرف فرعي له في يافا. وأيضاً ((الصندوق القومي ليهود)) وقد أنشئ في عام 1906 بهدف الحصول على أراضي في فلسطين، وإلى جانب المصرف اليهودي لمستعمرات والصندوق القومي اليهودي، أنشئت عام 1898 ((لجنة الاستعمار))، كما أنشئ عام 1908، ((مكتب فلسطين)) و((شركة تطوير الأراضي)) عام 1909. وكان هدف المؤسسات جميعها التخطيط لعملية الاستعمار اليهودي.

وأما الدبلوماسية فقد عمدت الصهيونية لحصول على الدعم والتأييد الدولي بشأن تحقيق الهدف الاستراتيجي لها، وكان من الطبيعي أن تركز جهود الصيونييين الدبلوماسية في بادئ الأمر على الأتراك العثمانيين الذين كانوا يحكمون فلسطين في ذلك الوقت. وبذل "هرتزل" جهوداً كبيرة لاتصال بالسلطان "عبد الحميد الثاني"، فنجح في مقابلته ثلاث مرات وفشلت محاولاته جميعها. فقد رفض السلطان منح حقوق غير محدودة بالهجرة اليهودية إلى فلسطين، نظير قيام اليهودية العالمية بتسديد الديون العامة لدولة العثمانية، ورد السلطان على "هرتزل" بما يلي: ((أنصحوا الدكتور "هرتزل" بالأخذ خطوات أخرى في هذا الموضوع، إني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض، لأنها ليست ملك يميني، بل ملك شعبي، لقد ناضل شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه... فليحتفظ اليهود بملايينهم لأنه لو قدر لإمبراطوريتي أن تتمزق فقط يحصلون على فلسطين دون مقابل. ولن يتم ذلك إلا إذا مزقت أوصالنا، ولن أوافق على أن تتمزق وأنا حي)).

أدرك "هرتزل" أنه من المستحيل اقناع السلطان "عبد الحميد" أو شراؤه، ولذلك دبر الصهاينة بعد وفاته مؤامرة لخلعه أو زج تركيا في حرب عالمية، ستخسرهما لامحالة كونها ضعيفة وهو الأمر الذي حصل فعلاً فيما بعد. ومن الغرابة أنه أثناء خلع السلطان العثماني بسبب الثورة التي قامت عليه عام 1908 جاء مع الأتراك موظف عثماني يهودي كان يعرفه

السلطان "عبد الحميد"، وقد سلمه رسالة الخلع عن الحكم، وكان اليهودي مندوبًا عن حركة تركيا الفتاة، فاستغرب السلطان من هذه المكيدة المدبرة.

- وعد بلفور والانتداب البريطاني على فلسطين:

عند بداية الحرب العالمية الأولى سنة 1917 كان قد بلغ عد اليهود في فلسطين حوالي 80 ألفًا، غير أن موقف اليهود الموالي لبريطانيا وحلفائها ضد الدولة العثمانية قد جعل العثمانيين يضيقون عليهم فترة الحرب (1914-1918) فانخفض عددهم مع نهايتها إلى نحو 55 ألفًا.

تمكن البريطانيون من احتل الجزء الجنوبي من فلسطين (حتى خط يافا - القدس) في ديسمبر 1917 ثم احتلوا باقي فلسطين في سبتمبر 1917 ومنذ ذلك التاريخ إلى غاية 1948 ظلت فلسطين واقعة تحت الاحتلال البريطاني، وقد دخل البريطانيون القدس في اليوم التاسع من شهر ديسمبر 1917، وهناك أعلن القائد البريطاني "إدموند النبي" Edmund Allenby في خطابه قائلاً: ((اليوم انتهت الحرب الصليبية))، وهو ما فعله مثله القائد الفرنسي "هنري غورو" Henri Gourand الذي احتل سوريا، وقف على قبر "صلاح الدين الأيوبي" وهو يقول بلهجة المنتشي المنتصر: ((ها قد عدنا يا صلاح الدين)).

خلال الفترة التي عاشتها فلسطين تحت الاحتلال البريطاني من 1917 إلى 1948 مؤامرة رهيبة تنفيذًا لوعد "بلفور" Balfour حرصت فيها بريطانيا بكل ما تملك على تحويل فلسطين إلى وطن قومي لليهود، حرمت أهل فلسطين من حقوقهم السياسية، وضيقت عليهم سبل العيش والرزق، وشجعت الفساد، وعملت على تحقيق الانقسامات العائلية والطائفية وإشغال أهل فلسطين بعضهم، ومن جهة أخرى شجعت الهجرة اليهودية إلى فلسطين والاستيطان اليهودي، وشراء الأراضي، وساعدت على تسليح اليهود، وبناء المستعمرات، وسمحت بناء المؤسسات اليهودية شبه الرسمية تهيئة لبناء دولتهم وإعلانها.

المصادر والمرجع المعتمدة:

- اسماعيل أحمد ياغي، الجذور التاريخية لقضية الفلسطينية، دار المريخ لنشر، الرياض، 1983.
- حسن صبرى الخولي، فلسطين بين مؤامرات الصهيونية والاستعمار، مؤسسة دار التحرير للطبع والنشر، الجمهورية العربية المتحدة، 1968.

- إميل توما، جذور القضية الفلسطينية، اصدار المكتبة الشعبية الناصرة، طبع في مطبعة الاتحاد التعاونية بحيفا، فلسطين، (د.س).
- أنيس صايغ وآخرون، الفكرة الصهيونية (النصوص الأساسية)، منظمة التحرير الفلسطينية مركز الأبحاث، بيروت، (د.س).
- أسعد رزوق، اسرائيل الكبرى (دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني)، مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، 1968.
- عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي (1516 - 192)، دار النهضة العربية لطباعة والنشر، بيروت.
- تيسير جبارة، تاريخ فلسطين، دار الشروق لنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1998.